

## سورة لقمان

هى مكية إلا الآيات ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ فمدنية ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم لما هاجر إلى المدينة قال له أحبار اليهود : بلغنا أنك تقول : « وَمَا أوتيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا » أعينتنا أم قومك ؟ قال : كلاً عنيت ، فقالوا : إنك تعلم أننا أوتينا التوراة ، وفيها بيان كل شيء ، فقال عليه الصلاة والسلام ذلك فى علم الله قليل ، فأنزل الله هؤلاء الآيات .

وعدة آياتها أربع وثلاثون ، نزلت بعد الصفات .

وسبب نزولها أن قريشا سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن قصة لقمان مع ابنه وعن برّه والديه ، فنزلت .

ومناسبتها لما قبلها من وجوه :

(١) إنه تعالى قال فى السورة السالفة : « وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ » وأشار إلى ذلك فى مطلع هذه السورة .

(٢) إنه قال فى آخر ما قبلها : « وَكَلِمَاتٍ جَمَعْتُهُمْ بِآيَةٍ لِيَكْفُرَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَتَتْهُ إِلَّا مُبْطِلُونَ » ، وقال فى هذه : « وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا » .

(٣) إنه قال فى السورة السابقة : « وَهُوَ الَّذِي بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ » ، وقال هنا : « مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْمَلُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ » ، فى كليهما إفادة سهولة البعث .

(٤) إنه ذكر هناك قوله : « وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا آذَقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ » ، وقال هنا : « وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، فَأَمَّا سَجَاهُمْ إِلَى الْبُرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ » فذكر فى كل من الآيتين قسماً لم يذكره فى الآخر .

(٥) إنه ذكر في السورة التي قبلها محاربة ملكين عظيمين لأجل الدنيا ، وذكر هنا قصة عبد مملوك زهد فيها ، وأوصى ابنه بالصبر والمسالمة ، وذلك يقتضى ترك المحاربة ، وبين الأمرين التقابل وشاسع البون كما لا يخفى .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْبِسْمِ (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (٢) هُدًى وَرَحْمَةً  
لِّلْمُحْسِنِينَ (٣) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ  
هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥)

### الإيضاح

(آلَم) تقدم تفسير هذا مرارا بإسهاب .

(تلك آيات الكتاب الحكيم) أى هذه آيات الكتاب الحكيم بياناً وتفصيلاً .  
(هدى ورحمة للمحسنين) الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون (أى هذه آيات الكتاب الهادى من الزيف ، الشافى من الضلال لمن أحسنوا العمل ، واتبعوا الشريعة ، فأقاموا الصلاة على الوجه الأكمل ، الذى رسمه الدين فى أوقاتها ، وآتوا الزكاة المفروضة عليهم إلى مستحقها ، وأيقنوا بالجزاء فى الدار الآخرة ، ورجعوا إلى الله فى ثواب ذلك ؛ لم يراءوا به ، ولا أرادوا به جزاء ولا شكوراً .  
ولما كان المتصفون بهذه الخلال هم الغاية فى الهداية والفلاح قال :

(أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) أى إن هؤلاء الذين ذكرت أوصافهم على نور من ربهم ، وأولئك الذين رجوا ما أملوا من ثوابه يوم القيامة ، وقد تقدم مزيد إيضاح لهذا أول سورة البقرة .

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بَغِيرَ  
عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّبِينٌ (٦) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا

وَلَىٰ مُّسْتَبَكِّرًا كَانَ لَمْ يَسْمَعَهَا كَانَ فِي أذُنَيْهِ وَقَرَأَ فَبَشَّرَهُ بِعَذَابٍ  
الِيمٍ (٧) .

### شرح المفردات

المрад بهو الحديث : الجوارى المغنيات ، وكتب الأعاجم ، وقد اشترت حقيقة .  
وقال ابن مسعود : هو الحديث : الرجل يشتري جارية تغنيه ليلاً ونهاراً ، وعن  
ابن عمر « أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في هو الحديث : إنما ذلك شراء  
الرجل اللعاب والباطل » ، وسبيل الله : هو دينه ، والمزوء : السخرية ، مهين : أى  
تلحقهم به الإهانة ، وقراً : أى صمما يمنعهم من السماع .

### المعنى الجملى

بعد أن بين حال السعداء الذين يهتدون بكتاب الله ، وينتفعون بسماعه ؛ وهم  
الذين قال الله فيهم : « اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَابِي تَفْشَعُ مِنْهُ  
جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ » - أردف ذلك  
بذكر حال الأشقياء الذين أعرضوا عن الانتفاع بسماع كلام الله ، وأقبلوا على استماع  
الزمامير والغناء بالألحان وآلات الطرب .

روى عن ابن عباس أن الآية نزلت في النضر بن الحرث اشترى قينة ( مغنية )  
وكان لا يسمع بأحد يريد الإسلام ؛ إلا انطلق به إلى قينة ، فيقول : أطعميه واسقيه  
وغنيه ، ويقول : هذا خير مما يدعوك إليه محمد من الصلاة والصيام ، وأن تقاتل  
بين يديه .

وروى عن مقاتل أنه كان يخرج تاجراً إلى فارس ، فيشتري كتب الأعاجم فيرويهما  
ويحدث بها قريشاً ، ويقول لهم : إن محمداً يحدثكم حديث عاد وثمود ، وأنا أحدثكم

حديث رستم واسفنديار ، وأخبار الأكامرة ، فيستملحون حديثه ويتركون سماع القرآن .

## الإيضاح

( ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً ) أى ومن الناس فريق يتخذ ما يتلوه به عن الحديث النافع للإنسان في دينه ، فيأتى بالخرافات والأساطير والمضاحيك ، وفضول الكلام ، كالنضر بن الحارث الذى كان يشتري الكتب ، ويحدث بها الناس ، وربما اشترى الفتيات ، وأمرهن بمعاشرة من أسلم ليحملهم على ترك الإسلام ، وما مقصده من ذلك إلا الإضلال ، والصد عن دين الله وقراءة كتابه ، وهو غير عالم بفضله ومكانته ، واتخاذ سبيل الله هزواً ولعباً . وعن نافع قال « كنت أسير مع عبد الله بن عمر في الطريق ، فسمع مرماراً ، فوضع أصبعيه في أذنيه ، وعدل عن الطريق ، فلم يزل يقول : يا نافع أسمع ؟ قلت : لا ، فأخرج أصبعيه من أذنيه ، وقال : هكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم صنع » وعن ابن عوف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إنما نهيت عن صوتين أحقن فاجرين : صوت عند نعمة لهو ومزامير شيطان . وصوت عند مصيبة خمش وجوه وشق جيوب ورنة شيطان » .

والخلاصة : إن الغناء عند المشتهرين به الذى يحرك النفوس ، ويبعثها على اللهو والغزل والجون ، بشعر يشب فيه بذكر النساء ، ووصف محاسنهن ، وذكر الخمر والجرمات ، فلا خلاف في تحريمه ، أما ما سلم من ذلك ، فيجوز القليل منه في أوقات الفرح : كالعرس والعيد ، وعند التثسيط على الأعمال الشاقة ، كما كان في حفر الخندق وحدو الجشة ( عبد أسود يقود بنساء النبي صلى الله عليه وسلم عام حجة الوداع ) فأما ما ابتدعه الصوفية من الإدمان على سماع المغانى بالآلات المطربة من الشبابات والطار والمغازف والأوتار فحرام ، وأما طبل الحرب فلا حرج فيه ، لأنه يقيم النفوس ، ويرهب

العدو ، فقد ضرب بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم يوم دخل المدينة ، فهم أبو بكر بالجزر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « دعهن يا أبا بكر حتى تعلم اليهود أن ديننا فسيح » فكان يضربن ويقلن : نحن بنات النجار ، حبذا محمد من جار .

وقصارى ذلك : إن الطبل في النكاح كالدف ، والآلات المشهورة به يجوز استعمالها فيه بما يحسن من الكلام ، مما لارفت فيه .

وسماع الغناء من المرأة التي ليست بمحرم لا يجوز .

ثم بين عاقبة أمرهم ، فقال :

( أولئك لهم عذاب مهين ) أى إنه كتب لهم العذاب والحزى يوم القيامة ، لأنهم لما أهانوا الحق باختيارهم الباطل - جوزوا بإهانتهم يوم الجزاء بعذاب يفضحهم ويخزيهم أمام الخلائق .

ثم أشار سبحانه إلى أن هذا قد استشرى في نفسه ، فكلما ذكرت بالخير ازدادت إباء ونفورا ، فقال :

( وإذا تلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعهما كأن فى أذنيه وقرا ) أى وإذا تلى آيات الكتاب الكريم على هذا الذى اشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله - يعرض عن سماعها وولى مستكبرا ، كأن لم يسمعهما كأن فى أذنيه ثقلا ، فلا يصيخ لها ، ولا يابى لتلقفها وتأملها .

ونحو الآية قوله : « قُلْ هُوَ الَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى » .

ولما تسبب عن ذلك استحقاقه لما يزيل كبره وعظمته قال :

( فبشره بعذاب أليم ) أى فبشر هذا المعرض وأوعده بالعذاب الذى يؤلمه ويقض

مضجعه يوم القيامة .

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ (٨) خَالِدِينَ فِيهَا  
وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩) .

### الغنى الجملى

بعد أن ذكر حال من أعرض عن الآيات وبين مآله - عطف على ذلك ذكر  
مآل من قبيل تلك الآيات وأنبأ على تلاوتها والاتشاع بها .

### الإيضاح

(إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم - خالدين فيها) أى إن الذين  
آمَنوا بالله وصدقوا المرسلين وعملوا الأعمال الصالحة فأنزلهما أسرم به ربهم فى كتابه  
على لسان رسله ، واتمها عما نهماه عنه - لهم جنات ينعمون فيها بأنواع اللذات  
والمسار من المآكل والمشارب ، والملابس والمرآكب ، مما لم يخطر لأحدهم ببال ، وهم  
فيها مقيمون دائما لا يظمنون ولا يبغون عنها حولا .

(وعد الله حقا) أى ما أخبرنا به كائن لا محالة ، لأنه وعد الله الذى لا يخلف  
وعده ، وهو الكريم المنان على عباده .

(وهو العزيز الحكيم) أى وهو الشديد فى انتقامه من أهل الشرك به ، الصادق  
عن سبيله ، الحكيم فى تدبير خلقه ، فلا يفعل إلا ما فيه الحكمة والمصلحة لهم .

خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ  
بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ  
زَوْجٍ كَرِيمٍ (١٠) هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ  
الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (١١) .

## شرح المفردات

العمد : واحدها عماد ، وهو ما يعتمد به أى يسند به ، تقول : عمدتُ الحائط إذا دعمته ، رواسى : أى جبلاً ثوابت ، تميد : أى تضطرب ، والبث : الإثارة والتفريق كما قال : « كَأَنْفَاشِ الْمَيْمُوتِ » والمراد الإيجاد والإظهار ، وزوج : أى صنف ، كريم : أى شريف كثير المنفعة .

### المعنى الجملى

بعد أن أبان فيما سلف كمال قدرته وعلمه وإتقان عمله - أردف ذلك بالاستشهاد لما سلف ، مع تقرير وحدانيته ، وإبطال أمر الشرك ، وتبكيته أهله .

### الإيضاح

( خلق السموات بغير عمد ترونها ) أى ومن الأدلة على قدرته البالغة ، وحكمته الظاهرة أن خلق السموات السبع بغير عمد تستند إليه ، بل هى قائمة بقدرة الحكيم الفعال لما يشاء ، وقد تقدم تفصيل ذلك فى سورة الرعد .

( وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم ) أى وجعل على ظهر الأرض ثوابت الجبال ، ثلثا تضطرب بكم ، وتميد بالمياه المحيطة بها ، الغامرة لأكثرها ( وبث فيها من كل دابة ) أى وذراً فيها من أصناف الحيوان ما لا يعلم عددها ومقدار أشكالها وألوانها إلا الذى فطرها .

( وأنزلنا من السماء ماء فأنبثنا فيها من كل زوج كريم ) أى وأنزلنا من السماء مطراً فكان ذلك سبباً لإنبات كل صنف كريم من النبات ذى المنافع الكثيرة . وبعد أن نبه إلى أنه الخالق نبه إلى أنه الرازق بقوله :

( هذا خلق الله ) أى هذا الذى تشاهدونه من السموات والأرض وما فيهما الخلق خلق الله وحده دون أن يكون له شريك فى ذلك .

ثم أنبى المشركين ووبخهم على شركهم به ، فقال :

( فأرونى ماذا خلق الذين من دونه؟ ) أى فأخبرونى أيها المشركون الذين تعبدون

هذه الأصنام والأوثان : أى شئ خلق الذين من دونه بما اتخذتموه شركاء له سبحانه في العبادة ، حتى استحقوا به العبودية ، كما استحق ذلك عليكم خالقكم وخالق هذه الأشياء التي عدتها لكم ؟ .

ثم انتقل من توبيخهم بما ذكر إلى تسجيل الضلال عليهم ، المستدعى للإعراض عنهم ، وعدم مخاطبتهم بالمعقول من القول لاستحالة أن يفهموا منه شيئاً فيهدتوا إلى بطلان ما هم عليه ، فقال :

( بل الظالمون في ضلال مبين ) أى بل المشركون بالله ، العابدون معه غيره ، في جهل وعمى واضح لا اشتباه فيه لمن تأمله ونظر فيه ، فأنى لهم أن يرعوا عن غيِّ أو يهدتوا إلى رشد وحق ؟ .

وَلَقَدْ آتَيْنَا لَقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (١٢) .

### شرح المفردات

لقمان كان نجاراً أسود من سودان مصر ذا مشافر آتاه الله الحكمة ، ومنعه النبوة. والحكمة: العقل والفطنة ، وقد نسب إليه من المقالات الحكيمة شئ كثير ، كقوله لابنه : أى بنى إن الدنيا بحر عميق ، وقد غرق فيها ناس كثير ، فاجعل سفينتك فيها تقوى الله تعالى ، وحشوها الإيمان ، وشرعها التوكل على الله ، املك تنجو ، ولا أراك ناجياً .

وقوله : من كان له من نفسه واعظ ، كان له من الله حافظ ، ومن أنصف الناس من نفسه ، زاده الله بذلك عزاً ، والذل في طاعة الله ، أقرب من التعزى بالعصية .  
وقوله : يَا بُنَيَّ لَا تَكُنْ خَلواً فَتُبْتَغَىٰ وَلَا مَرءاً فَتُكْفَرْ .

وقوله : يا بني إذا أردت أن تواخى رجلاً فأغضبه قبل ذلك ، فإن أنصفك عند غضبه فأخه ، وإلا فاحذره . والشكر : الثناء على الله تعالى ، وإصابة الحق ، وحب الخير للناس ، وتوجيه الأعضاء وجميع النعم لما خلقت له .

### المعنى الجملى

بعد أن بين فساد اعتقاد المشركين بإشراك من لا يخلق شيئاً من خلق كل شيء ، ثم بين أن المشرك ظالم ضالّ - أعقب ذلك ببيان أن نعمه الظاهرة في السموات والأرض ، والباطنة: من العلم والحكمة ترشد إلى وحدانيته ، وقد آتاهها لبعض عباده كلقمان الذى فطر عليها دون نبيّ برشده ، ولارسل بعث إليه .

### الإيضاح

(ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر الله) أى ولقد أعطى سبحانه لقمان الحكمة ، وهى شكره وحده على ما آتاه من فضله بالثناء عليه بما هو أهل له ، وحب الخير للناس ، وتوجيه الأعضاء إلى ما خلقت له .

(ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه) لأن الله يجزل له على شكره الثواب ، وينقذه من العذاب ، كما قال : « وَمَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ » .

(ومن كفر فإن الله غنىّ حميد) أى ومن كفر نعم الله عليه ، فبلى نفسه أساء ، لأن الله معاقبه على كفرانه إياها ، والله غنى عن شكره ، لأن شكره لا يزيد فى سلطانه ، وكفرانه لا ينقص من ملكه ، وهو الحمدود على كل حال ، كفر العبد أو شكره .

وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا وَهُمَا عَلَىٰ وَهْنٍ

وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْهُ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ (١٤) وَإِنْ جَاهَدَاكَ  
عَلَىٰ أَنْ تَشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبِهُمَا فِي الدُّنْيَا  
مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا  
كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥) يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنَّا جَعَلْنَا لَكَ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ  
فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَرَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنْ أَرَادَ اللَّهُ لَطِيفٌ  
خَيْرٌ (١٦) يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اقِمُوا الصَّلَاةَ وَأْمُرُوا بِالْعُرُوفِ وَأَنْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَعِزُّوا  
عَلَىٰ مَا أَصَابَكُمْ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧) وَلَا تُصَوِّرُوا خَدَّكَ لِلنَّاسِ  
وَلَا تَقْصُ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) وَأَقْسِدُوا  
فِي سَيْبِكُمْ وَاعْضُضُوا مِنْ صَوَابِكُمْ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَمْوَآتِ لَصَوَابُهُ  
الْجَمِيرِ (١٩).

### شرح المفردات

العضة : تذكير بالخير يرق له القلب ، والوهن : الضعف ، والفضال : القظام ،  
جاهدك : أى حرصا على متابعتك لهما فى الكفر ، أناب : أى رجع ، المتقال :  
ما يوزن به غيره ، ومثقال حبة الخردل مثل فى الصغر ، لطيف : أى يصل علمه إلى كل  
خفى ، خير : أى عليم بكنه الأشياء وحقايقها ، من عزم الأمور : أى من الأمور  
المعزومة التى قطعها الله قطع إيجاب ، تصعير الخد : ميلاد وإبداء صفحة الوجه ، وهو من  
فعل التكبيرين ، قال أعرابى : وقد أقام الدهر صعري بعد أن أمت صعره ، وقال  
عمرو بن حفص التغلبى :

وكنا إذا الجبار صعر خده أقمنا له من ميله فقومنا

وفي الحديث : « يأتى على الناس زمان ليس فيهم إلا أصغر أو أبتز » والأصغر : المعرض بوجهه كبرا ، وفي الحديث : « كل صغار ملعون » أى كل ذى أبهة وكبر هو كذلك . مرحا : أى فرحا وبطراً ، والمختال : هو الذى يفعل الخيلاء وهى التبختر فى المشى كبراً ، والفخور : من الفخر وهو المباهاة بالمال والجاه ونحو ذلك ، اقصد : أى توسط ، اغضض : أى انقص منه وأقصر ، من قولهم : فلان يفض من فلان إذا قصر به ووضع منه ، وحط من درجته ، أنكر الأصوات : أى أبقجها وأصعبها على السمع من نكر (بالضم) نكارة ، أى صعب .

### المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه أن لقمان أوتى الحكمة ، فشكر ربه على نعمه المتظاهرة عليه ، وهو يرى آثارها فى الآفاق والأنفس آناء الليل وأطراف النهار - أردف ذلك ببيان أنه وعظ ابنه بذلك أيضاً ، ثم استطرد فى أثناء هذه المواعظ إلى ذكر وصايا عامة وصى بها سبحانه الأولاد فى معاملة الوالدين رعاية لحقوقهم ، ورداً لما أسدوه من جميل النعم إليهم ، وهم لا يستطيعون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ، على ألا يتعدى ذلك إلى حقوقه تعالى ، ثم رجع إلى ذكر بقية المواعظ التى يتعلق بعضها بحقوق الله ، وبعضها يرجع إلى معاملة الناس بعضهم مع بعض .

### الإيضاح

(وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم) أى واذكر أيها الرسول الكريم موعظة لقمان لابنه ، وهو أشفق الناس عليه ، وأحبهم لديه حين أمره أن يعبد الله وحده ، ونهاه عن الشرك ، ويبين له أنه ظلم عظيم ؛ أما كونه ظالماً ، فلما فيه من وضع الشيء فى غير موضعه ، وأما أنه عظيم فلما فيه

من التسوية بين من لانعمة إلامنه ، وهو سبحانه ، ومن لانعمة لها ، وهى الأصنام والأوثان .

روى البخارى عن ابن مسعود قال : لما نزل قوله تعالى : « الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ » شق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالوا : أين لم يلبس إيمانه بظلم ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنه ليس بذلك . ألا تسمعون لقول لقمان : « يا بنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم » .

وبعد أن ذكر سبحانه ما أوصى به لقمان ابنه من شكر النعم الأول الذى لم يشركه فى إيجاده أحد ، وذكر ما فى الشرك من الشناعة أتبعه بوصيته للولد بالوالدين لكونهما السبب فى وجوده ، فقال :

( ووصينا الإنسان بوالديه ) أى وأمرناه ببرها وطاعتها ، والقيام بحقوقهما ، وكثيرا ما يقرب القرآن بين طاعة الله وبر الوالدين كقوله : « وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا » .

ثم ذكر منه الوالدة خاصة لما فيها من كبير المشقة ، فقال :

( حملته أمه وهنا على وهن ) أى حملته وهى فى ضعف يتزايد بازدياد ثقل الحمل إلى حين الطلق ، ثم مدة النفاس .

ثم أوردفها بذكر منه أخرى ، وهى الشفقة عليه وحسن كفالته حين لا يملك نفسه شيئا ، فقال :

( وفضاله فى عامين ) أى وفضامه من الرضاعة بعد وضعه فى عامين تقاسى فيهما الأم فى رضاعه وشثونه فى تلك الحقبه جم المصاعب والآلام التى لا يقدر قدرها إلا العليم بها ، ومن لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء . وقد وصى بالوالدين لكونه ذكر السبب فى جانب الأم فحسب ، لأن المشقة التى تلحقها أعظم ، فقد حملته فى بطنها ثقيلًا ، ثم وضعته وربته ليلا ونهارًا ، ومن ثم قال صلى الله عليه وسلم لمن

سأله من أبرزه : أمك ، ثم أمك ، ثم أمك ، ثم قال بعد ذلك : ثم أباك .

ثم فسر هذه الوصية بقوله : ( أن اشكر لى ولوالديك ) أى وعهدنا إليه أن اشكر لى على نعمى عليك ، ولوالديك لأنهما كانا السبب فى وجودك ، وإحسان تربيتك ، وملاقاتهما مالا تقيما من المشقة حتى استحكمت قواك .

ثم علل الأمر بالشكر له محذراً إياه بقوله :

( إلى المصير ) أى إلى الرجوع ، لا إلى غيرى ، فأجازيك على ما صدر منك مما يخالف أمرى ، وسألتك عما كان من شكرك لى على نعمى عليك ، وعلى ما كان من شكرك لوالديك وبرك بهما .

وبعد أن ذكر سبحانه وصيته بالوالدين وأكد حقهما ، ووجوب طاعتهما استثنى من ذلك حقوق الله ، فإنه لا يجب طاعتهما فيما يفضيه ، فقال :

( وإن جاهدك على أن تشرك بى ما نيس لك به علم فلا تطعهما ) أى وإن ألحف عليك والداك فى الطلب ، وشداً الفكر عليك ؛ بأن تشرك بى فى عبادتك معنى غيرى مما لا تعلم أنه شريك لى ، فلا تطعهما فيما أمراك به ، وإن أدى الأمر إلى السيف فجاهدتهما به .

روى أن هذه الآية نزلت فى سعد بن وقاص قال : « لما أسلمت حلفت أى لاتأكل طعاماً ولا تشرب شراباً ، فناشدتها أول يوم فأبت وصبرت ، فلما كان اليوم الثانى ناشدتها فأبت ، فلما كان اليوم الثالث ناشدتها فأبت ، فقلت : والله لو بكأت لك مائة نفس لخرجت قبل أن أودع دينى هذا ، فلما رأيت ذلك وعرفت أنى لست فاعلاً أكلت » .

( وصاحبهما فى الدنيا معروفاً ) أى وصاحبهما فى أمور الدنيا صحبة يرتضيها الدين ويقتضيها الكرم والبروة ، يطعامهما وكسوتهما ، وعدم جفائهما وعبادتهما إذا مرضا ، مواراتهما فى القبر إذا ماتا .

وقوله : ( فى الدنيا ) إشارة إلى تهوين أمر الصحبة ، لأنها فى أيام قلائل وشبكة الانقضاء ، فلا يصعب تحمل مشقتها ؛ ولما كان ذلك قد يجر إلى نوع وهن فى الدين ببعض محاباة فيه نفى ذلك بقوله :

( واتبع سبيل من أناب إلى ) أى واسلك سبيل من تاب من شركه ورجع إلى الإسلام ، واتبع محمداً صلى الله عليه وسلم .

والخلاصة : واتبع سبيل التوحيد والإخلاص والطاعة ، لاسبيلهما .

( ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ) أى ثم مصيركم إلى بعد مماتكم ، فأخبركم بما كنتم تعملون فى الدنيا من خير وشر ، ثم أجازيكم عليه ، المحسن منكم بإحسانه ، والمسيء بإساءته .

ثم عاد إلى ذكر بقية وصايا لقمان لابنه بعد أن نهى فى مطاعها عن الشرك وأكده بالاعتراض الذى ذكره بقوله :

( يا بنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتسكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله ) أى يا بنى إن الفعلة من الإساءة والإحسان إن تك وزن حبة من خردل فتسكن فى أخفى مكان وأحرزه كجوف الصخرة أو فى أعلى مكان كالسموات أو فى أسفله كباطن الأرض - يحضرها الله يوم القيامة ، حين يضع الموازين القسط ، ويجازى عليها إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، كما قال تعالى :

« وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً » .

( إن الله لطيف خبير ) أى إن الله لطيف يصل علمه إلى كل خفى ، خبير : يعلم ظواهر الأمور وخوافيها .

( يا بنى أقم الصلاة ) أى أدها كاملة على النحو المرضي ، لما فيها من رضا الرب بالإقبال عليه والإحبات إليه ، ولما فيها من النهى عن الفحشاء والمنكر ، وإذا تم ذلك صفت النفس وأنابت إلى بارئها فى السماء والضراء كما جاء فى الحديث : « اعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه ، فإنه يراك » .



هونا ، فإن ذلك يفضى إلى التواضع ، وبذا تصل إلى كل خير .

روى يحيى بن جابر الطائى عن غضيف بن الحرث قال : « جالست إلى عبد الله ابن عمرو بن العاصى ، فسمعتة يقول : إن القبر يكلم العبد إذا وضع فيه ، فيقول : يا ابن آدم ما غرك بي ؟ ألم تعلم أنى بيت الوحدة ؟ ألم تعلم أنى بيت الظلمة ؟ ألم تعلم أنى بيت الحق ؟ يا ابن آدم ما غرك بي ؟ لقد كنت تمشى حولى فذاذا ( ذا خيلاء وكبر ) » .  
وفى الحديث : « من جر ثوبه خيلاء لا ينظر الله إليه يوم القيامة » .

ثم ذكر علة هذا النهى بقوله :

( إن الله لا يحب كل مختال فخور ) أى إن الله لا يحب الختال المعجب بنفسه ،  
المخور على غيره ، ونحو الآية ما مر من قوله : « وَلَا تَمْسُ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ  
لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا » .

( ٣ ) ( واقصد فى مشيك ) أى امش مشيا مقتصدا ليس بالبطء المتبسط ،  
ولابالسرعة المفرط ، بل امش هونا بلا تصنع ولا مراعاة للخلق بإظهار التواضع  
أو التكبر .

روى عن عائشة أنها نظرت إلى رجل كاد يموت تخافتا ، فقالت : ما هذا ؟ فقيل :  
إنه من القراء ( الفقهاء العالمين بكتاب الله ) قالت : كان عمر سيد القراء ، وكان  
إذا مشى أسرع ، وإذا قال أسمع ، وإذا ضرب أوجع .  
ورأى عمر رجلا متاوتا ، فقال له : لا تُمِتْ علينا ديننا ، أماتك الله . ورأى رجلا

مطأطئا رأسه ، فقال له : « ارفع رأسك ، فإن الإسلام ليس بهمريض » .

( واغضض من صوتك ) أى انقص منه وأقصر ، ولا ترفع صوتك حيث  
لا يكون إلى ذلك حاجة ، لأنه أوقر للمتكلم وأبسط لنفس السامع وفهمه .

ثم علل النهى وبيّنه بقوله :

( إن أنكر الأصوات لصوت الحجر ) أى إن أشع الأصوات وأقبحها برفها فوق

الحاجة بلا داع هو صوت الحجير ، وغاية من يرفع صوته أنه يجعله شبيها بصوت الحجاز في علوه ورفعه ، وهو البغيض إلى الله .

وفي ذلك ما لا يخفى من الذم . وتهجين رفع الصوت ، والترغيب عنه ، ومن جعل الرفع صوته كأنه حمار مبالغه في التنفير من عمله ، وهذا أدب من الله لعباده بترك الصياح في وجوه الناس تهاوناً بهم ، أو بترك الصياح جملة .

وقد كانت العرب تفخر بمجاهرة الصوت ، فمن كان منهم أشد صوتاً كان أعز ، ومن كان أخفض كان أذل ، قال شاعرهم :

جهير الكلام جهير العطاس      جهير الرواء جهير النعم  
ويعدو على الأين عدو الظلم      ويعلو الرجال بخلق عمم (١)

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَافِي السَّمَوَاتِ وَمَافِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ، وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (٢٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءُنَا أَوْ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ (٢١)؟

### المعنى الجملى

بعد أن أقام الأدلة على التوحيد ، وذكر أن لقمان فهمه بالحكمة دون أن يرسل إليه نبيّ - عاد إلى خطاب المشركين وتوبيخهم على إصرارهم على ما هم عليه من الشرك مع مشاهدتهم لدلائل التوحيد لأئحة للعيان ، يشاهدونها في كل آن ، في السموات والأرض ، وتسخيرهم لما فيها مما فيه مصالحهم في المعاش والمعاد ، وإنعامه عليهم بالنعم المحسوسة والمعقولة ، المعروفة لهم وغير المعروفة ؛ ثم أبان أن كثيراً من الناس يجادلون

(١) الرواء بالضم : النظر الحسن ، والنعم : الأبل ، والأين : الأعياء ، والخلق العمم : التمام .

فى توحيد الله وصفاته بدون دليل عقلى على ما يدعون ، ولا رسول أرسل إليهم بما عنده  
 يفاضلون ، ولا كتاب أنزل إليهم يؤيد ما يعتقدون ، وإذا هم أغموا بالحجة والسلطان  
 المبين ، لم يجدوا جوابا إلا تقليد الآباء والأجداد بنحو قولهم : « إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا  
 عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ » وما ذلك إلا من نزغات الشيطان ، والشيطان  
 لا يدعو إلا إلى الضلال الموصل إلى النار ، وبئس القرار .

## الإيضاح

( ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه  
 ظاهرة وباطنة ) أى ألم تروا أيها الناس أن الله الذى سخر لكم ما فى السموات من  
 شمس وقمر ، ونجوم وسحاب ، تستضيئون بها ليلا ونهاراً ، وتمتدون بها فى ظلمات البر  
 والبحر ، وتنزل لكم الأمطار لسقى الناس والحيوان والمزارع المختلفة ، وما فى الأرض  
 من الدواب والأشجار ، والمياه والبحار ، والسفن والمعادن التى فى باطنها ، إلى نحو  
 ذلك من المنافع التى جعلها لغذائكم وأقواتكم ؛ فتتمتعون ببعض ذلك ، وتلتفتون  
 بجميع ذلك ، وأنتم عليكم نعمه محسوسة وغير محسوسة .

والخلاصة : إنه تعالى نبه خلقه إلى ما أنعم به عليهم فى الدنيا والآخرة ؛ بأن سخر  
 لهم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليهم من النعم الظاهرة والباطنة ، فأرسل  
 الرسل وأنزل الكتب وأزاح الشبه والعلل .

روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لابن عباس وقد سأله عن هذه الآية :

« الظاهرة : الإسلام وما حسن من خلقك ، والباطنة : ما ستر عليك من سبي  
 عملك » وقيل : الظاهرة الصحة وكال الخلق ، والباطنة : المعرفة والعقل ؛ وقيل :  
 الظاهرة : ما يرى بالأبصار من المال والجاه والجمال ، وتوفيق الطاعات ، والباطنة :

ما يجده المرء فى نفسه من العلم بالله ، وحسن اليقين ، وما يدفع عن العبد من الآفات .

ثم ذكر أنه مع كل هذه الأدلة الظاهرة قد مارى بعض الناس دون برهان من عقل ولا مستند من نقل ، فقال :

(ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير) أى وهناك فريق من الناس يجادل ويخاصم فى توحيد الله وصفاته كالنضر بن الحرث وأبى بن خلف اللذين كانا يجادلان النبي صلى الله عليه وسلم فى ذلك بلا علم من عقل ولا مستند من حجة صحيحة ولا كتاب مأثور يؤيد صحة ما يدعون .

ثم بين أنه لامطعم فى إيمان مثل هؤلاء ، لأنهم قد بلغوا الغاية فى الغباوة ، واستسلموا للتقليد ، وتركوا الدليل وإن كان لأحما ظاهراً ، فقال :

(وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا) أى وإذا قيل لهؤلاء المجادلين الجاحدين لوحدانىة الله : اتبعوا ما أنزل الله على رسوله من الشرائع لم يجدوا رداً لذلك إلا قولهم : إنا نتبع ما وجدنا عليه آباءنا من دين ، فإنهم كانوا أهل حق ودين صحيح .

فويحزهم على تلك المقالة التى هى من حبائل الشيطان ووساوسه فقال :

(أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير؟) أى أيتبعونهم على كل حال دون نظر إلى دليل؟ فربما كان اعتقادهم مبنيًا على الهوى وترهات الأباطيل ، سداه ولحنته ما زينه لهم الشيطان من وساوس لا تستند إلى حجة ولا برهان .

والخلاصة — أما كان لهم أن يفكروا ويتدبروا حتى يعلموا الحق من الباطل والصواب من الخطأ ، فإن الرجال بالحق وليس الحق بالرجال ؟

وفى هذا ما لا يخفى من تسفيه عقولهم وتسخيف آرائهم ، وأنهم بلغوا الدرك الأسفل فى هدم العقل وعدم الركون إلى الدليل مهما استبانته غايته واستقامت حجته .

وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ  
 وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٢٢) وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا رُجْعُهُمْ  
 فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٢٣) نَعْتَمُهُمْ قَلِيلًا  
 وَنَضَطْرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٢٤)

### شرح المفردات

يسلم وجهه : أى يفوض أمره ، محسن : أى مطيع لله فى أمره ونهيه ، والمراد بالعروة الوثقى : أوثق العرى وأمتنها ، وهو مثل : وأصله أن من يرقى فى جبل شاهق أو يتدلى منه يستمسك بحبل متين مأمون الانقطاع ، نضطرهم : أى نلزمهم ، وغليظ : أى ثقيل ثقل الأجرام الغلاظ .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه حال المشرك المجادل فى الله بغير علم - أردف ذلك بذكر حال المستسلم المفوض أموره إلى الله ، وبيان عاقبته ومآله ، ثم سلى رسوله عما يلقاه من المشركين من العناد والكفران ببيان أنه قد بلغ رسالات ربه وتلك وظيفة الرسل ، وعلى الله الحساب والجزاء ، فهو يجازيهم بما يستحقون من العذاب الغليظ فى جهنم وبئس المصير .

### الإيضاح

(ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى) أى ومن يعبد الله وهو متذلل خاضع مع الإحسان فى العمل بفعل الطاعات ، وترك المعاصى والمنكرات ، فقد تعلق بأوثق الأسباب التى توصل إلى رضوان ربه ومحبته وحسن جزائه على ما قدم من عمل صالح .

ثم بين العلة في أنه يلي الجزاء الأوفى فقال :

(وإلى الله عاقبة الأمور) أى إن المصير إلى الله لا إلى غيره ، فلا يكون لأحد إذ ذاك أمر ولا نهى ، ولا عقاب ولا ثواب ، فيجازى المتوكل عليه أحسن الجزاء ، ويعاقب المسمى أنكل العذاب .

ثم سلى رسوله عما يلقاه من أذى للمشركين وعنادهم فقال :

(ومن كفر فلا يحزنك كفره) أى لا تحزن على كفرهم بالله وبما جئت به ، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات ، فإن قدر الله نافذ فيهم .

ثم بين لرسوله أنه لا يهملهم على أعمالهم بل هو يجازيهم عليها فقال :

(إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا) أى إن مصيرهم يوم القيامة إلينا فنخبرهم بما عملوا في الدنيا من خبيث الأعمال حتى لا يكون هناك سبيل إلى الإنكار ثم يجازيهم على ذلك أشد الجزاء .

ثم بين أنه عادل في الجزاء لسعة علمه وعظيم إحاطته بكل شىء فقال :

(إن الله عليم بذات الصدور) أى إنه تعالى يجازيهم بكل ما عملوا ، إذ لا تخفى عليه خافية .

ثم بين أن ما يتمتعون به في الدنيا فهو عرض قليل وظل زائل لا ينبغي لعاقل أن يقيم له وزنا بجانب العذاب الدائم فقال :

(نمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ) أى نمتعهم في الدنيا زمنا قليلا يتمتعون فيه بزخارفها ثم نلجئهم على كره منهم إلى عذاب شاق على نفوسهم .

ونحو الآية قوله : « قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ . مَتَاعٌ

فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ » .

وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٥) لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٦) .

### المعنى الجملى

بعد أن أقام الأدلة على وحدانيته تعالى بخلق السموات بلا عمد وبإسماخ نعمه الظاهرة والباطنة عليهم - أردف ذلك ببيان أن المشركين معترفون بذلك غير جاحدين له ، وهذا يستدعى أن يكون الحمد كله له وحده ، ومن يستحق الحمد هو الذى يستحق العبادة ؛ فأمرهم عجب يعلمون المقدمات ثم ينكرون النتيجة التى تستتبعها، فيعبدون من لا يستحق عبادة ولا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا من الأصنام والأوثان .

### الإيضاح

(ولمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ) أى ولئن سألت أيها الرسول هؤلاء المشركين بالله من قومك : من خلق السموات والأرض ؟ ليقولنَّ الله . وفى هذا إيماء إلى أنه قد بلغ من الوضوح مبلغا لا يستطيعون معه الإنكار والجحود .

ولما استبان بذلك صدقه صلى الله عليه وسلم وكذبهم قال أمرا رسوله .

(قل الحمد لله) على إجلالهم إلى الاعتراف بما يوجب بطلان ما هم عليه من إشراك غيره تعالى به فى العبادة التى لا يستحقها سوى الخالق المنعم على عباده .

ثم بين أنهم بلغوا الغاية فى الجبل فهم يعترفون بالشئ ويعملون نقيضه فقال :

(بل أ أكثرهم لا يعلمون) أى بل أ أكثر المشركين لا يعلمون من له الحمد وأين

موضع الشكر ، فهم مع تكذيبك يعترفون بما يوجب تصديقك .

ولما أثبت لنفسه الإحاطة بأوصاف الكمال استدلل على ذلك بقوله :

(لله ما فى السموات والأرض ، إن الله هو الغنى الحميد) أى له سبحانه كل ما فى السموات والأرض ملكا وخلقا وتصرفا وليس ذلك لأحد سواه ، فلا يستحق العبادة فيهما غيره ، وهو الغنى عن عبادة جميع خلقه لأنهم ملكه وهم المحتاجون إليه ، الحمدود على نعمه التى أنعمها عليهم .

وَلَوْ أَنَّ مَافِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمْدُهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ  
أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٧) مَا خَلَقَكُمْ وَلَا  
بَعَثَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٢٨) .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أنه أجرى الحكمة على لسان لقمان ، ثم قفى على ذلك ببيان أنه أسبغ نعمه على عباده ظاهرة وباطنة ، وأن له ما فى السموات وما فى الأرض - أردف ذلك ببيان أن تلك النعم وهذه الخلقوات لا حصر لها ولا يعلمها إلا خالقها كما قال : « وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا » .

ولما كانت تلك النعم التى لا حصر لها وربما ظن أنها مبعثرة لا قانون لها أو أنها لكثرتها يصعب عليه تدبيرها وتصريف شئونها كما يريد - دفع هذا بقوله : ( ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ) .

روى أنه لما نزل بمكة قوله تعالى : « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ » الآية ، وهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة أتاه أحبار اليهود وقالوا بلغنا أنك تقول : « وَمَا أوتيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا » أتعنينا أم تعنى قومك ؟ قال : كلاً عنيت ، قالوا أأنت تغلو فيما جاءك أنا أوتينا التوراة فيها علم كل شىء ، فقال صلى الله عليه وسلم هى فى علم الله قليل ، وقد أتاكم ما إن عملتم به انتفعتم ، قالوا كيف تزعم هذا وأنت

نقول : « وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا » فكيف يجتمع علم قليل وخير كثير ، فنزات الآية : ( ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام ) الخ .

### الإيضاح

( ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ) أى لو أن أفنان الأشجار وأغصانها برت أقلاما وجعل البحر مدادا وأمدته سبعة أبحر والخلائق جميعا يكتبون بها كلمات الله الدالة على عظمته وجلاله لتكسرت الأقلام ونفذ ماء البحر ولم تنفذ كلمات الله .

ونحو الآية قوله : « قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِثَلَاثِ مِائَةِ مَدَدًا » وإنما ذكرت السبعة الأبحر للدلالة على الكثرة ، لا تقصد هذا العدد بعينه ، فقد تقدم أن قلنا آنفاً إن العرب تذكر السبعة ، والسبعين ، والسبعائة ، وتريد بذلك الكثرة كما جاء فى الحديث « سبعة يظاهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله » وفى الآية : « مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَنَابِلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ » .

وقصارى ذلك : إنه أخبر أن عظمته وكبريائه وجلاله وأسماؤه الحسنى لا يحيط بها أحد ، ولا يصل البشر إلى معرفة كتبها وعدها كما ورد فى الحديث : « سبحانك لا تحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » .

( إن الله عزيز حكيم ) أى إن الله قد عز كل شىء وقهره ، فلا مانع لما أراد ولا معقب لحكمه ، وهو الحكيم فى خلقه وأمره ، وأقواله وأفعاله ، وشرعه وجميع شئونه .

ثم أبان أن هذا الخلق الذى لاحصر له محيط به علما ، ولا يعجزه شىء فيه متى أراد ، فقال :

( ما خلقكم ولا بعثكم إلا كففس واحدة ) أى ما خلق جميع الناس ولا بعثهم

يوم المعاد بالنسبة إلى قدرته إلا الخلق نفس واحدة ، فالكل هين عليه كما قال : « إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » ، وقال : « وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ » ، وقال : « فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ . فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ » .  
 ( إن الله سميع بصير ) أى إن الله سميع لأقوال عباده ، بصير بأفعالهم .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَكُونُونَ خَبِيرٌ (٢٩)  
 ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ سَمُّوا الْحَيُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٣٠) أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلُوكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣١) وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَرَجٌ كَاظِمٌ لَدَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَأَمَّا نَجَاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْأَكْثَرُ الْخَسِرَ كَفُورٍ (٣٢)

### شرح المفردات

يولج : أى يدخل ، والمراد أنه يضيف الليل إلى النهار ، والعكس بالعكس ، فيتناوت بذلك حالة أحدهما زيادة ونقصانا ، تجرى : أى تسير سيرا سريعا ، بنعمة الله : أى بما تحمله من الطعام والمتاع ونحوهما ، غشيهم : أى غطاهم ، والظلم : واحدها ظلة ، وهى كما قال الراغب : السحابة تظل ، مقتصد : أى سالك للقصد أى للطريق المستقيم ، وهو التوحيد لا يعدل عنه إلى غيره ، وما يجحد : أى ما ينكر ، وختار : من الختر ، وهو أشد الغدر ، قال عمرو بن معد يكرب :

فإنك لو رأيت أبا عمير ملأت يدك من غدر وختار

وقال الأعشى :

بالأبلى الفرد من تيماء منزله  
حصن حصين وجار غير ختار

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أنه سخر للإنسان ما فى السموات وما فى الأرض - ذكر هنا بعض ما فهمنا بقوله : يولج الليل فى النهار الخ ، وبعض ما فى السموات بقوله : وسخر الشمس والقمر ، وبعض ما فى الأرض بقوله : ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمة الله ، ثم ذكر أن الكل معترفون بتلك الآيات ، إلا أن البصير يدركها على الفور ، ومن فى بصيرته ضعف لا يدركها إلا إذا وقع فى شدة ، وأحدق به الخطر ، فهو إذ ذاك يعترف أن كل شيء بإرادة الله .

### الإيضاح

( ألم تر أن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ) أى ألم تشاهد أيها الناظر بعينيك أن الله يزيد ما نقص من ساعات الليل فى ساعات النهار ، ويزيد ما نقص من ساعات النهار فى ساعات الليل .

والمخالصة : إنه يأخذ من الليل فى النهار ، فيقصر ذلك ويطول هذا ، وذلك فى مدة الصيف ، إذ يطول النهار إلى الغاية ، ثم يبتدىء النهار فى النقصان ، ويطول الليل إلى الغاية فى مدة الشتاء .

( وسخر الشمس والقمر ) لمصالح خلقه ومنافعهم .

( كل يجرى إلى أجل مسمى ) أى كل منهما يجرى بأمره ، إلى وقت معلوم ، وأجل محدد ، إذا بلغه كورت الشمس والقمر .

( وأن الله بما تعملون خبير ) أى وأن الله بأعمالكم من خير وشر خبير بها لا تخفى عليه خافية من أمرها ، وهو مجاز يكتم بها .

ثم بين الحكمة في إظهار آياته للناس ، فقال :  
 ( ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل ) أى إنما يظهر آياته  
 لكم لتستدلوا بها على أنه هو المستحق للعبادة ، وأن كل ما سواه هو الباطل الذى  
 يضمحل ويفنى ، فهو الغنى عما سواه ، وكل شئ فقير إليه .

( وأن الله هو العلى الكبير ) أى وأنه تعالى المرتفع على كل شئ ، والمتسلط على  
 كل شئ ، فكل شئ خاضع له ، وهو الحكم العدل اللطيف الخبير .

وبعد أن ذكر الآيات السماوية الدالة على وحدانيته أشار إلى آية أرضية ، فقال :  
 ( ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمة الله ليزيكم من آياته ) أى ألم تشاهد أيها  
 الرسول السفن وهى تسير فى البحر حاملة للأقوات والمتاع ، من بلد إلى آخر ، ومن  
 قطر إلى قطر هو فى حاجة إليها لينتفع الناس بما على ظاهر الأرض مما ليس فى أيديهم .  
 وفى هذا دليل على عجيب قدرته التى ترشدكم إلى أنه الحق الذى أوجد ماترون  
 من الأحمال الثقيلة على وجه الماء الذى ترسب فيه الإبرة فما دونها .

ثم ذكر من يستفيد من النظر فى الآيات ، فقال :

( إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ) أى إن فيما ذكر لدلائل واضحات  
 لكل صبار فى الضراء ، شكور فى الرخاء . قال الشعبي : الصبر نصف الإيمان ،  
 والشكر نصف الإيمان ، واليقين الإيمان كله ، ألم تر إلى قوله : « **إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ  
 لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ** » . وقوله : « **وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ** » . وقال عليه  
 الصلاة والسلام : « **الإيمان نصفان : نصف صبر ، ونصف شكر** » .

ثم بين أن المشركين ينسون الله فى السراء ويأجثون إليه حين الضراء ، فقال :  
 ( وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين ) أى وإذا أحاطت  
 بالمشركين الذين يدعون من دون الله الآلهة والأوثان - الأمواج العالية التى كالجبال ،  
 وأحذق بهم الخطر من كل جانب حين يركبون السفن - فرغوا بالدعاء إلى الله مخلصين  
 له الطاعة لا يشركون به شيئاً ، ولا يدعون معه أحداً سواه ، ولا يستغيثون بغيره .

(فلما نجاهم إلى البر ففهم مقتصد وما يحدد بآياتنا إلا كل ختار كهور) أى فلما نجوا من الأهوال التى كانوا فيها ، وخلصوا إلى البر ، فمنهم متوسط فى أقوله وأفعاله بين الخوف والرجاء ، موفّ بما عاهد عليه الله فى البحر ، ومنهم من غدر وتقض عهد الفطرة ، وكفر بأنعم الله عليه .

يَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٌ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ (٣٣) إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (٣٤)

### شرح المفردات

اتقوا ربكم : أى خافوا عقابه ، لا يجزى : أى لا يغنى ، والغرور : ماغرّ الإنسان من مال وجاه ، وشهوة وشيطان ، والساعة : يوم القيامة ، ما فى الأرحام : أى ما فى أرحام النساء من صفاته وأحواله كالدكورة والأنوثة ، والحياة والموت ، وغيرها من الأعراض .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر دلائل التوحيد على ضروب مختلفة ، وأشكال متنوعة - أسر بتقوى الله على سبيل الموعدة والتذكير بيوم عظيم ، يوم يحكم الله بين عباده ، يوم لا تنفع فيه قرابة ، ولا تجدى فيه صلة رحم ، فلو أراد والد أن يفدى ابنه بنفسه لما قبل منه ذلك ، وهكذا الابن مع أبيه ، فلا تلهينكم الدنيا عن الدار الآخرة ، ولا يغرنكم الشيطان

فيزينن لكم بوساوسه المعاصي والآثام . ثم ختم السورة بذكر ما استأثر الله بعلمه ، مما في الكائنات ، وهي الخمس التي اشتملت عليها الآية الكريمة ، مما لم يؤت علمها ملك مقرب ، ولا نبي مرسل .

### الإيضاح

( يأيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا ) أى يأيها المشركون من قريش وغيرهم اتقوا الله وخافوا أن يحل بكم سخطه في يوم لا يغنى والد عن ولده ، ولا مولود هو مغني عن والده شيئا ، لأن الأمور كلها بيد من لا يغالب ، ومن لا تنفع عنده الشفاعة والوسائل التي تنفع في الدنيا ، بل لا تجدى عنده إلا وسيلة واحدة ، هي العمل الصالح الذي قدمه المرء في حياته الأولى . ثم أكد ما سلف بقوله :

( إن وعد الله حق ) أى واعلموا أن محيى هذا اليوم حق ، لأنه قد وعد الله به ولا خلف لوعده .

ثم حذرهم من شيئين ، فقال :

(١) ( فلا تفرنكم الحياة الدنيا ) أى فلا تتخذ عنكم زينة هذه الحياة ولذاتها ،

فتميلوا إليها وتدعوا الاستعداد لما فيه خلاصكم من عقاب الله في ذلك اليوم .

(٢) ( ولا يفرنكم بالله الغرور ) أى ولا يفرنكم الشيطان ، فيحملنكم على المعاصي

بتزيينها لكم ، ثم إرجاء التوبة إلى ما بعد ذلك ، ثم هو ينسينكم ذلك اليوم ، فلا تتخذن له زادا ، ولا تعدنه مَعَادَا .

ثم ذكر سبحانه خمسة أشياء لا يعلمها إلا هو ، فقال :

(١) ( إن الله عنده علم الساعة ) فلا يعلمها أحد سواه ؛ لا ملك مقرب ، ولا نبي

مرسل ، كما قال : « لَا يُجَلِّبُهَا لَوْ قَتَبَهَا إِلَّا هُوَ » .

(٢) ( وينزل الغيث ) في وقته المقدر له ، ومكانه المعين في علمه تعالى ،

والفلكيون وإن علموا الخسوف والكسوف ، ونزول الأمطار بالأدلة الحسابية ،

فليس ذلك غيباً ، بل بأمارات وأدلة تدخّل في مقدور الإنسان ، ولا سيما أن بعضها قد يكون أحياناً في مرتبة الظن ، لافي مرتبة اليقين .

(٣) (ويعلم ما في الأرحام) أذكر هو أم أنثى ، أتأمّ الخلق أم ناقصه ، أو نحو ذلك من الأحوال العارضة له .

(٤) (وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً) من خير أو شر .

(٥) (وما تدرى نفس بأى أرض تموت) أى لا يدرى أحد أين مضجعه من الأرض ؟ أفي بحر أم في برّ ، أم في سهل ، أم في جبل .

( إن الله عليم خبير ) أى إن الله عليم بجميع الأشياء ، خبير ببواطنها كما هو خبير بظواهرها .

أخرج ابن المنذر عن عكرمة « أن رجلاً يقال له : الوارث بن عمرو بن حارثة جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد متى قيام الساعة ؟ وقد أجدبت بلادنا ، متى تُخْصَب ؟ وقد تركت امرأتى حبلية فما تلد ؟ وقد علمت ما كسبت اليوم فماذا أكسب غدا ؟ وقد علمت بأى أرض ولدت ، وبأى أرض أموت ؟ فنزلت الآية : إن الله عنده علم الساعة الخ » .

وروى البخارى ومسلم عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مفاتيح الغيب خمس : إن الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ، ويعلم ما في الأرحام ، وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير » . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه .

## محمل ما حوته السورة الكريمة من الموضوعات

- (١) القرآن هداية ورحمة للمؤمنين .
- (٢) قصص من ضل عن سبيل الله بغير علم ، واتخذ آيات الله هزوا .
- (٣) وصف العالم العلوى ، والعالم السفلى ، وما فيهما من العجائب الدالة على وحدانية الله .
- (٤) قصص لقمان وإيتاؤه الحكمة ، وشكره لربه على ذلك ، ثم نصائح لابنه .
- (٥) الأمر بطاعة الوالدين إلا فيما لا يرضى الخالق .
- (٦) النعم على المشركين في ركوبهم إلى التقليد إذا دعوا إلى النظر في السكون وعبادة الخالق له .
- (٧) لا نجاة للإنسان إلا بالإخبارات إلى الله وعمل الصالحات .
- (٨) تسليمة الرسول عن عدم إيمان المشركين .
- (٩) تعجيب رسوله من المشركين بأنهم يقولون بأن الله هو الخالق لكل شيء ثم هم يعبدون معه غيره ممن هو مخلوق مثاهم .
- (١٠) نعم الله ومخلوقاته لا حصر لها .
- (١١) الأمر بالنظر إلى السكون وعجائبه لستترشد بذلك إلى وحدانية الصانع لها .
- (١٢) تحميق المشركين بأنهم في الشدائد يدعون الله وحده ، وفي الرخاء يشركون معه سواه .
- (١٣) الأمر بالخوف من عتاب الله يوم لا يجزى والد عن ولده .
- (١٤) مفاتيح الغيب الخمسة التي استأثر الله بعلمها .
- (١٥) إحاطة علمه تعالى بجميع الكائنات ظاهرها وباطنها .